

الفصل الثالث

جوانب جرير

١ - الشاعر السياسي

ما كاد جرير يلقى بنفسه في تيارات السياسة حتى قذفت به في يَمٍّ أشبه ما يكون بالنفاق السياسي . حين قاده ظروف الحزبية وأهوازها نحو هوى الزبيرين في الوقت الذي يشايع فيه الأمويين : فقد مالت قيس مع ابن الزبير . تَوَازَرَ من يُوَازِرُونَهُ في موقعة مرج راهط . وكذلك كان ميل جرير مع قبيلته بني يربرع الذين حاربوا فيما بعد في صفوف مصعب بن الزبير . ورثى جرير قتلاهم ^(١) . وبذلك قَرَّبَتِ الحوادث يربوعاً وشاعرها جريراً من قيس . منذ غلب ابن الزبير على العراق . فجعلتهم صنفاً واحداً . كما صنعت الحوادث عداوة لهُوَلَاءِ من الفُزَرْدَقِ وقومه . فتقدمه هم الذين غدروا بالزبير . وقتلوه بعد وقعة الجمل . كما خاصصنه زوجه النوار إلى ابن الزبير في مكة ولم ينصره عليها . ومن ثم نذهم زبيرية جرير التي دفعته إليها الحوادث دفعاً . فاتخذ منها مادة يرمى بها غريمه الفُزَرْدَقِ وقومه بالغدر بالزبير وقتله :

تَمَلَّ الرَّبِيرَ رَأَيْتَ عَاقِفَهُ حُبُورٍ قُبْحاً لِحُبُوتِكَ الَّتِي لَمْ تُحَلَّلْ
هَاتَكَ غَدْرُكَ بِالزُّبَيْرِ عَلَى مَنِيٍّ وَمَجْرُؤُ جَفْنِيْنِكُمْ بِذَاتِ الْحَرَمَلِ ^(٢)

كما نذكر السر الذي من أجله ألب بشر بن مروان الشعراء على جرير ^(٣) . وقد خلا ديوانه من الاعتداد بهذه الزبيرية إلا ما ندر من الأبيات كقوله بفخر بقومه الذين زادوا عن المنبر الشرقي أيام فتنة البصرة ^(٤) . وعن الكعبة مناصرة لابن الزبير :

(١) « أنساب الأشراف » .

(٢) « الديوان » .

(٣) و (٤) « الأغاني » و « التنقيص » .

عَنِ الْمَنْبَرِ الشَّرْقِيِّ ذَادَتْ رِمَاحُنَا وَعَنْ حُرْمَةِ الْأَرْكَانِ يُرْمَى حَطِيمُهَا

ولن نبتعد عن الصواب إذا قلنا : إن جريراً لم يكن عريقاً في زبيرته التي لم تنضح في شعره وضوح أمويته .

فلما تمّ القضاء على ابن الزبير وأنصاره خلص للأمويين خلوصاً تاماً ، فكان شاعرهم الأول بالبصرة ، يمدحهم ، ويمدح ولائهم ، ويسرف في هذا المدح ، ويغلو في بيان نظريتهم في الخلافة وأحقيتهم بها ، ويشيد بسياسة ولائهم ويؤيدها . ولا سيما سياسة الحجاج . ولعله قبل إيقاله في أمويته كان يسائل نفسه : أليس من الأجدر به أن يتعلق بالأمويين ، ليرفع بعزهم ضعة عشيرته ، ويردّ بفيضهم عادة فقره ، ويأمن بنصرهم مكر أعدائه ، ويتقن بتأييدهم نكر بطشهم ، ثم أليس من حق الكثرة الغالبة ، ومن حقه على هذه الكثرة وهو شاعرها الذي تتحلّق حوله بالميربند^(١) تهليل له وتنصره على معارضيهِ ، أن يساير هواها في معاضدة حزب الدولة الغالب بكثرته . ؟

لقد استجاب لنفسه حين دعته إلى ذلك ، واستجاب لعوامل الرغبة والرهبة فسلك سبيل المؤيدين ، وذهب مذهبه يشيد بذكر الأمويين . ويدعو إلى نصرة مبادئهم التي تدعو إلى تقديس الدولة ، واتخاذها عقيدة تقوم على أن الله اصطفى الخلفاء ، وخصهم بالكرامة ، وفضلهم على سائر الأمة الإسلامية ، فهم الأئمة الهادون المهديون الذين تجب على المسلمين طاعتهم ، ومن عصاهم أو خرج عليهم ، يعدّ مبتدعاً في الدين يصد عن سبيل الله ، ويفتح للشيطان سبيل الضلال .

وقد اعتمد في تأييد نظرية الخلافة الأموية على المذاهب العقلية السائدة في

(١) المربد : سوق من أسواق العرب بالبصرة . والمعنى القوي للمريد : كل شيء حبست به الإبل والغنم ، ولهذا قيل مربد النعم الذي بالمدينة ، وبه سمي مربد البصرة . وأصله من ربد بالمكان إذا أقام به .

عصره ، كقوله لعبد الملك :

اللَّهُ طَوَّقَكَ الْخِلَافَةَ وَالْهَدَى وَاللَّهُ لَيْسَ لِمَا قَضَى تَبْدِيلُ

يشير إلى فكرة المهدي ، وإلى مذهب الجبرية ، فالله قد قضى لعبد الملك بالإمامة ، ولا راد لقضاء الله وقدره ، وشبيه بهذا قوله في يزيد بن عبد الملك :

زَانِ الْمَنَابِرِ وَاخْتَالَتِ بِمَنْتَجَبٍ مُثَبَّتٍ بِكِتَابِ اللَّهِ مَنْصُورٍ^(١)

وقوله في عمر بن عبد العزيز :

نَالَ الْخِلَافَةَ إِذْ كَانَتْ لَهُ قَدَرًا كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ

وقوله في هشام بن عبد الملك :

إِلَى الْمَهْدِيِّ نَفَزْعُ إِنْ فَرَعْنَا وَنَسْتَسْقِي بِغُرَّتِهِ الْغَمَامَا^(٢)
رَضِينَا بِالْخِلَافَةِ حِينَ كُنَّا لَهُ تَبَعًا وَكَانَ لَنَا إِمَامَا

ومن قوله يعرض بخصومهم الضالين :

آلُ الْمُهْلَبِ فَرَّطُوا فِي دِينِهِمْ وَطَفَعُوا كَمَا فَعَلَتْ ثُمُودُ فَبَارُوا^(٣)

ولا يني عن مناصرة ولاية بني أمية ، كقوله من قصيدة يؤيد فيها سياسة الحجاج ، ويبرر جبروته وبطشه بالمشاغبين ، ومحاربه للرشا والفساد :

لَقَدْ جَرَّدَ الْحَجَّاجُ بِالْحَقِّ سَيْفَهُ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَا يَمِيلَنَّ مَائِلُ

وكم مدحة عمرت بشعره السياسي ، تأييداً للحكم الأموي ، وتعريضاً بالمعارضين ،

(١) منتجب : مختار .

(٢) فزع إليه : التجأ .

(٣) باروا : ملكوا .

غير أنه لم يتعرض لسبب غير الأمويين من قريش المطالبين بالخلافة . إرضاء
لمذهبه من مراضاة الناس .

وله مع أولياء العهد جولات كادت تأذهب فيها نفسه ، كان ذلك حين
حبس الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك أن يصرف ولاية العهد عن أخيه سليمان إلى
ابنه عبد العزيز ، وتخاض جرير معه غمار هذه السياسة ، وهتف بها في بعض
قصائده ، ثم أعجلت الحجاج منيته عن إتمام سياسته ، ولحق به الوليد ، فأسقط
في يد جرير ، ولم ينجه من كبوته غير حسن حظ واثاه في ساعة العسرة ، حين
ثار أحد رؤساء بني يربوع قوم جرير في خراسان بقتية بن مسلم فقتله ، وكان
ممالئاً للحجاج في هذه السياسة ، فأرضى ذلك سليمان عن يربوع عامة ، وعفا
عن شاعرهم جرير .

وكثيراً ما استجاب لرغبة الخلفاء الذين أرادوا تحويل ولاية العهد لأبنائهم :
صنع ذلك مع عبد الملك حين صرفها عن أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، ولما
أرادها سليمان لابنه أيوب جاراها جرير فقال :

إِنَّ الْإِمَامَ الَّذِي تُرْجَى نَوَافِلُهُ بَعْدَ الْإِمَامِ وَلِيُّ الْعَهْدِ أَيُّوبُ

وهكذا كان جرير لسان حال الأمويين ، يصفح عما ينتون من أمر ،
ويصممون من عزم ، أو هو صحيفتهم السيرة تنشر دعوتهم ، بل إنه كان مذبعباً
لمبادئهم ومآثرهم ، يوجه لإذاعاته من المِرْبَدِّ والكُنَاسَةِ^(١) ، ومن بوادي البصرة
وقصر الخلافة ، فيلتقطها العرب ، ويذيعونها في سائر البقاع ، فنستولى على
الأسماع ، وتحدث أثرها النفوس .

٢ - الشعاع الغنائى

(١) طريقته :

كان ذا بديهة حاضرة ساعدته على ارتجال بعض أشعاره . ومن طرق قرضه للشعر أنه إذا أراد أن يؤبد قصيدة ، أنشأها ليلاً ، يشعل سراجيه ويعتزل ، وربما علا السطح وحده فاضطجع ، وغطى رأسه رغبة فى الخلوة بنفسه ، وقد صنع مثل ذلك فى قصيدته التى أخزى بها بنى نمير : إذ سهر لنا وطالت ليلته إلى أن قال :

فَغَضَّ الطَّرْفَ لِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَمَبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا

فأطفأ سراجيه ونام ، وقال : قد والله أخزيتهم ^(١) .

وكان يقصر المادحة ويطيل الهجاء على خلاف مذهب الشعراء ، ويقول لبنيه : إذا مدحتهم فلا تطيلوا المادحة ، وإذا هجوتهم فخالقوا . ويقول : إذا هجوت فأضحك ^(٢) . وكان قليل التنقيح لألفاظه ^(٣) ، ولا يتكلم حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قذف المحصنات ^(٤) ، وكثيراً ما يستحث قريحته بشرب النبيذ ، ويتمرغ فى الرمل أو على الفراش ، ويهمهم ، ويجبو على الفراش عريان حتى يخاله الناظر إليه أصيب بجنة ^(٥) وحين قال له الفرزدق :

إِنِّى أَنَا الْمَوْتُ الَّذِى هُوَ ذَاهِبٌ بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهُ

(١) « العدة » ١ / ٢٦ و ١٣٨ .

(٢) « العدة » ٢ / ١٤٠ .

(٣) « العدة »

(٤) « البيان والتبيين » .

(٥) « تاريخ آداب اللغة العربية » .

وحلف بالطلاق أن جريراً لا يغلبه فيه : لبث جرير يتمرغ في الرضاء
ويقول : أنا أبو حَزْرَةَ حَتَّى قَالَ :
أَنَا الدَّهْرُ يُفْنِي الْمَوْتَ وَالْدَّهْرُ خَالِدٌ فَجِئْنِي بِمِثْلِ الدَّهْرِ شَيْئاً يُطَاوِلُهُ
فغلبه وطلق عليه زوجه .

(ب) صياغة شعره :

صاغ الشعر مبكراً . متأثراً ببنيته الشعرية . والسياسية والاجتماعية : مستجيباً
للتجارب النفسية . والإنارات الوجدانية . مستلهماً سليقة فياضة . وطبعاً دُفاقاً .
يرسل القصيد متى شاء . ويصرفه كيف يشاء . سهلاً عذباً ، فخماً جزلاً .
قوياً رصيناً . محكم القافية . خالياً من التكلف والحشو والتعقيد . تنسق قوافيه ،
وتألف ألفاظه ومعانيه . فكأنما يغترف من خضم البحر . ويصب في معين
الشعر . ما تطرب له نفسه ، ويعجب به غيره . من عامة القوم وخاصتهم ،
فجرى على الألسنة . وسرى بين الربوع ، يرفع الوضع . ويضع الرفيع . ويفحم
الشعراء . ويلجم البلغاء .

وجرير كغيره من الشعراء الإسلاميين ، تمثل في ألفاظه ومعانيه الحياة
البدوية الإسلامية أصدق تمثيل ، لأنه لم يكن قد تأثر بعلوم الفرس واليونان
والهنود كما تأثر المحدثون من بعد ، بل كان معينه البيئة البدوية . وما زخرت به
الحياة الإسلامية الجديدة من آداب وتشريع وحكمة . وما مزجت به نفسه من
تدين وعفة . وشاعرية مطبوعة ، فكانت معانيه قريبة فطرية . سهلة الورد على
الخاطر . مصبوبة في قوالب محكمة من جزالة اللفظ . وفحولة العبارة ، وسلامة
الوزن ، وحلاوة النبر . مما ينساب إلى الأسماع في خفة ورفق . فتستريح إليه
النفوس .

(ج) فنون شعره :

بدأ جرير الفحول في الهجاء والغزل والرثاء ، وأكثر المديح ، ولكنه لم يسبق الأخطل فيه ، وأجاد الفخر والحماسة ، غير أن الفرزدق فيهما أشعر منه ، وله متفرقات لا تبلغ ما بلغته الفنون السابقة من الجودة والكثرة ، وأغلبها جاء منبثاً في ثنايا قصائده ، كالوصف والعتاب والشكوى . وكثير من قصائده ولا سيما ما كان منها مدحاً أو هجاء تنهج النهج الجاهلي : من الابتداء بذكر الديار والبلين ، والحنين والحبيب ، في غزل رقيق ، يُعَدُّ به للقول نفسه ، ويجذب إليه غيره ، ثم يصف رحلته وراحلته وما أصابه من نصب ، وما اعتور ناقتة من كلال وهزال ، في سبيل الوصول إلى من يقصد ، ثم يتخلص من هذا إلى التصريح بصفات المدح ، والتلميح بحاجته ، وقد يتعرض لهجاء الأعداء ، وربما افتخر بنفسه وقومه ، وفي تضاعيف ذلك يرسل الحكمة ، ويضرب الأمثال . وفيما يلي تفصيل لأهم أغراض شعره :

١ - النسيب والغزل :

بدأ به أكثر قصائده مقلداً الجاهليين ، وسلك فيه طريقتهم من التصون والتجمل ، فوصف زوجاته بقسامة الوجه ، وملاحة القد ، وطيب الحديث والرائحة ، وذكر الديار والدمن وفراق الأحبة ، وخوارج النفس بعبارة فخمة عذبة ، عامرة باللفظ الجزل ، والمعنى الشريف ، ولم يذهب مذهب معاصريه الغزليين بالحجاز ، فلم يتبدل في عشقه ، وعزف عن التأنت في الغزل ، ومحاكاة النساء في حديثهن وتدللهن وحوارهن ودعابتهن ، وقص القصص عنهن ، ولم يتهاك في تهالك القيان وبجان الموالى والمغنين ، وامتاز بالركة ، وخفة الوقع على السمع ، وقوة أسره للنفس ، وحوكه في القلب ، مع أنه لم يصدر منه عن وجد وهيام ، ولو عشق ولم يمعن في الهجاء ، لكان إمام الشعراء العشاق ، وفي ذلك يقول : ما عشقت قط ، ولو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز ، فتبكي على ما فات من

شبابها . ويمكننا أن نعلل تفوقه في النسيب وتوقيفه مع عزوفه عن النساء بركة طبعه وفطرته الإنسانية الصادقة الشعور ، وتدبنة وعفته ، وكان يعتمد على النسيب كفن موسيقى رفيع ، حلو النبر ، طويل النفس ، مطرد الخيال ، خصب الوجدان ، يفتح به مقطوعاته ، ويرضى نفسه ، ويعدها للقول ، ويضطرب غيره ، ويستلب منه السمع ، فهو بلا ريب أستاذ النسيب العربي الذي تفتتح به القصائد ، فسبق صاحبيه فيه ، وتعلمذ عليه البحري ، ومن عيون غزله :

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُخَيِّنْ قَتَلَانَا
يَضْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهْنٌ أضعفُ خَلْقَ اللَّهِ إِنْسَانَا

٢ - الرثاء :

ثالث ثلاثة الفنون الشعرية التي سبق فيها زميله ، وحق له أن يسبق فيها ، فقد اطمأنت نفسه إليها ، وأجابها إلى ما تطمئن إليه ، ولنفسيته أبعد الأثر في شعره ، فقد مضت به ، تنفقد أجماد عشيرته ، فلم تجد ما تصبو إليه ، وانطلقت به تفتش عن ثراء أبيه ، فلم تعثر على ما يحقق الأمل ، ويحبي الرجاء ، فأوت معه إلى حظيرة الدين ، تتعلق بأهداب الحياة الإسلامية ، وتخلص التنسك لله ، فأفاض عليها طهارة وعزة ، وصفاء وعفة ، وتمتع جرير بنفسية صافية ، تسمو بدنيا ، وقد تأسى على ما فاتها من دنياها ، إلى جانب طبع رقيق ، وعاطفة مشبوبة ، وسليقة موهوبة ، فسبق فيما سبق فيه ، واستجابت نفسه للشعر العاطفي واستبد بها الأسى عند النوازل ، فأثار حزنها الكمين ، وفاضت مراثيه بالأنين ، في دقة ولين ، ورنين حزين ، ينفذ إلى القلوب الواجدة ، فتجد في أبياته صدقاً لأسأها ، ورفيقاً يواسيها ، ولهذا كان شعره الباكي مع قلته أكثر ذبوعاً بين الناس ، يناح به نوحاً على الأموات والقتلى وحين رثى زوجه خالدة بمراثيته :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَعَادَنِي اسْتِعْبَارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكَ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

تناقلها الرواة . وبكى بها الباكون . حتى إن قوم الفرزدق بكوا بها على هوالكه ، وسماها جرير الجوساء ^(١) . لذهاياها بين البلاد .

قال بشار لابن سلام : كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النوار . فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير . ثم سأله ابن سلام : وأى شيء من المراثي إلا التي رثي بها امرأته ؟ فأنشدته لجرير يرثي ابنه سودة . ومات بالشام . وكان به معجباً ^(٢) .

فَارَقَتْنِي حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِي وَحِينَ صِرْتُ كَعَظْمِ الرُّمَّةِ الْبَالِي

٣ - الفخر والحماة :

لما كانت الحماسة هي فن الحمية والقوة والتسامي . فقد آثرنا أن نفرحها بالفخر لما بينهما من وثيق الصلة وسدة التقارب . مقتفين أثر جرير الذي آخى بينهما في شعره .

لقد استطاع أن يفخر باستقامته ، وشهامته . وصوله شعره . وسيرورته .

وَأَذْرَكَتُ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلِي وَلَمْ أَدْعُ لِمَنْ كَانَ بَعْدِي فِي الْقَصَائِدِ مَضْنَعًا

ولكنه لم يستطع الفخر بعشيرته من كليب ومنهم أبوه عطية . لتحول شأنهم في الغابر والحاضر ، ورقة حالهم . ودناءة شحهم . مما دعاه إلى التماس الفخر في قبيلته العليا بنى يربوع ، ففاخر بشرفهم وبسالتهم ، وعلو كعبهم في الجاهلية والإسلام . وكثيراً ما عبره خصومه بمفاخرته بغير أهل بيته الأذنين . وكان هذا من أشد المهجاء عليه ، غير أن روعة قصائده غطت على ضعة أبيه وهوانه وبخله .

وقد وجد في تميم - التي يجتمع مع الفرزدق في الانتساب إليها - ما أثر شتى وفي قيس عيلان حليفته موافقها ووقائعها . وفي خندف ومضر وقريش مفاخرها وأحسابها وأنسابها ، وفي الخلافة والنبوة صلة يعتز بها :

(١) من جاس جوساً وجوساناً بين البيوت والدور : تردد وطاف بينها في الغارة .

(٢) الأغانى ١٠٥٥ هـ .

مُضَرَّ أَبِي وَأَبُو الْمُلُوكِ فَهَلْ لَكُمْ يَا خُزْرُ تَغْلِبَ مِنْ أَبِي كَائِنًا (١)
هَذَا ابْنُ عُمَى فِي دِمَشَقَ خَلِيفَةً لَوْ شِئْتُ سَأَقُكُمْ إِلَى قَطِينَا (٢)

ومن أبياته السائرة في الفخر :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابًا

وأشاد في حماسه بمواقف القتال ، وضروب الشجاعة ، وأمجاد السيادة كقوله :

أَلَا رَبَّ جَبَّارٍ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ سَقَيْنَاهُ كَأْسَ الْمَوْتِ حَتَّى تَضَلَّعَا

٤ - أماديج :

بدأ جرير أماديجه بالنسيب مقلداً شعراء الجاهلية . واستمد معانيه الجديدة المتنوعة من الحياة الإسلامية ، والعناصر الدينية . فوصف الخلفاء بالعدل والأمانة وإقامة الحدود والفرائض . والاهتداء بالكتاب والسنة ، وعصيان داعي الهوى ، واستعان في الدفاع عنهم بالمذاهب العقلية السائدة في عصره . وقد سبق القول في هذا . وفي اتصاله بالخلفاء والولاة . ولم يطل المديح إطالته في المجاء . مع غرامه بتوليد المعاني . واستقصاء صفات المدوح . وقلما يخلطه بفخر أو هجو : أو تعرض للهاشميين مراعاة للناس ، وهذا الفن هو الذي دمغه بالنضية ، فقد اتخذها وسيلة للتكسب والاستجداء في حذق وكياسة . وقد جرّه إلى هذا فقره ، ورغبة الخلفاء في استمالة الشعراء : بإجزال العطاء ، ليتمكنوا لهم في الأرض .

وتناول مدحه الخلفاء والأمراء والولاة ومنهم الحجاج . والقيسية أعداء تميم في الجاهلية والإسلام . كما مدح ذوى اليسار والموالى من العجم وسوآهم بالعرب في الشرف : فأغدقوا عليه الحيات : وحفظوا شعره ورووه ، وتباهوا به . وقد سبقه

(١) خزر : ضيقو العيون . والمراد بخزر تغلب : خنازير تغلب .

(٢) القطبن : الخدم والأتباع . وحين سمع عبد الملك هذا البيت قال : ما زاد ابن المراغة عني أن جعلني شرطياً ، أما إنه لو قال : « لو شاء ساقكم إلى قطينا » لسقطتم إليه كما قال .

الأخطل في كثير من نواحي المديح ، لتفرغه للخلفاء ، كما سبقه في الفخر الفرزدق ، لعراقه أصله ، ولحاجة هذين الفنانين إلى فخامة وضخامة وصلاية ، لم توات جريراً كما واثت صاحبيه . ولم يمدح ليرضى قلبه ، بل لبسيف جيبه ، وكان يسترسل مع هواه في نسيب طويل ، فلا يدل إلى المديح إلا وقد استفرغ جهده . فيأتي بأبيات قليلة لا تبلغ في جودتها ، ما بلغته فنونه الأخرى إلا ما ندر من مدحاته المشهورة ، التي مدح بها أفاضال الرجال وأعلام الأدب كالحجاج ، وعبد الملك الذي يقول فيه :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٌ رَاحَ

٣ - الشاعر الهجاء

(١) التحامه بالشعراء :

اشتدت الملاحاة بينه وبين كثير من الشعراء ، فأفحمهم جميعاً ، وسقطوا ، ولم يثبت له غير الفرزدق والأخطل ، ثم مات الأخطل ، فبقى والفرزدق في عراك شعري عنيف إلى أن وافاه نأ وفاة الفرزدق سنة ١١٠ هجرية .

قال الأصمعي : إن جريراً كان ينشه ثلاثة وأربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره . ويرى بهم واحداً واحداً ، ومنهم من كان ينفخه فيرمي به ، وثبت له الفرزدق والأخطل .

وأول من التحم بهم من الشعراء ، غسان السليطي . حين اختلف بنو جحيش مع بني الخطي - وكلاهما من يربوع - في غدير بالقاع ، فاستعان بنو جحيش بغسان ، فهجأ بني الخطي والناس مجتمعون عليه ، ورآه جرير وكان يرعى غنم أبيه ، فركب بعيراً وأقبل وقد حمى فناطق بالشعر رجلاً هجأ به غسان ومن معه أفحش هجاء . فاعتز به قومه ، وتمادى الهجاء بينهما حتى قال غسان :

لَعَمْرِي لَيْتَ كَانَتْ بَجِيلَةَ زَانَهَا جَرِيرٌ فَقَدْ أَخْزَى كُلِّبًا جَرِيرُهَا
فَأَجَابَهُ جَرِيرٌ بِقَصِيدَتِهِ :

أَلَا بَكَرَتْ سَلْمَى فَجَدَّ بُكُورُهَا وَشَقَّ الْعَصَا بَعْدَ اجْتِمَاعِ أَمِيرُهَا
وَتَدَخَّلَ بَيْنَهُمَا « الْعَنْتَاب » أَعُورُ بَنِي نِهَانٍ ، فَقَالَ يَهْجُو جَرِيرًا :
وَأَنْتَ كُلِّبِيُّ لِكَلْبٍ وَكَلْبَةُ لَهَا عِنْدَ أَطْنَابِ الْبُيُوتِ هَرِيرُ
فَقَالَ جَرِيرٌ يَرُدُّ عَلَيْهِ :

وَجَدْنَا بَنَى نِهَانَ أَذْنَابَ طَيِّئٍ وَلِلنَّاسِ أَذْنَابُ تُرَى وَصُدُورُ
وَأَعُورُ مِنْ نِهَانَ أَمَّا نَهَارُهُ فَأَعْمَى وَأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرُ
ولما سقط غسان وصاحبه ، أعانه البيث من بني مجاشع قوم الفرزدق من
تميم ، فهجاه جرير وسب نساء مجاشع سباً منكراً ، وكان الفرزدق قد قيد نفسه
حتى يحفظ القرآن ، وعاهد الله ألا يهجو أحداً أبداً ، فجاءته نساء بني مجاشع
وقلن له : قبح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نساءك ، فلحيث شاعر قوم ،
فأحفظنه ، ففرض قيده وقال :

أَلَا اسْتَهْزَأَتْ مِنِّي هُنَيْدَةُ أَنْ رَأَتْ أَسِيرًا يُدَانِي خَطْوُهُ حَلَقُ الْحِجْلِ^(١)

ودافع عن قومه في وجه جرير ، فهجاه وهجا البيث في قصيدته .

عُوجِي عَلَيْنَا وَارْبِعِي رَبَّةَ الْبَعْلِ وَلَا تَقْتُلِينِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي

ولم تكن للفرزدق رغبة في الالتحام بجرير ، ولكن البيث جره إلى المعركة
فكان يهجو جريراً ويهجو البيث معه في مثل قصيدته :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي يَوْمَ جَوْ سُوَيْقَةٍ بَكَيْتُ فَنَادَتْنِي هُنَيْدَةُ مَالِيَا

فأجابه جرير بقصيدته الرائعة :

أَلَا حَيُّ رَهْبِيُّ ثُمَّ حَيُّ الْمَطَالِيَا فَقَدْ كَانَ مَانُوسًا فَأَضْبَحَ خَالِيَا

وما فتئا يتهاجيان ، ولا يلتفتان إلى البعيث . فسقط بينهما .

ولما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما . فتأنيى بخبرهما ، فانحدر مالك حتى لقيهما ، واستمع منهما ثم لقي أباه فقال : وجدت جريراً يغرف من بحر . ووجدت الفرزدق ينحت من صخر ، فقال الأخطل : الذى يغرف من بحر أشعر : ثم قال :

إِنِّي قَضَيْتُ قَضَاءَ غَيْرِ ذِي جَنَفٍ لَمَّا سَمِعْتُ وَلَمَّا جَاءَنِي الْخَبَرُ
إِنَّ الْفَرَزْدَقَ قَدْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ وَعَصَّه حَيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ذَكَرُ

وحين علم بشر بن مروان والى الكوفة بقدوم الأخطل عليه أرسل إليه محمد ابن عمير بن عطار المجاشعي ، ليرشوه بألف درهم وبغلة وكسوة وخمر . ويقول له : لا تعن على شاعرنا ، واهج جريراً ، فإنك قد قضيت له على صاحبنا ، فقل له أبياتاً تقضى بها لصاحبنا عليه ، فأنشد الأخطل أبياتاً منها :

اخْصَأْ إِلَيْكَ كَلِيبٌ إِنْ مُجَاشِعَا وَأَبَا الْفَوَارِسِ نَهْشَلَا أَخَوَانِ
وَإِذَا سَمِعْتَ بِدَارِمٍ قَدْ أَقْبَلُوا فَاهْرُبْ إِلَيْكَ مَخَافَةَ الطُّوفَانِ

فناقضه جرير بقصيدته :

لِمَنِ الدِّيارُ بِبُرْقَةِ الرُّوحَانِ إِذْ لَا نَبِيعُ زَمَانَا بِزَمَانِ

ومنها :

يَاذَا الْعَبَاوَةَ إِنْ بِشَرًّا قَدْ قَضَى أَلَّا تَجُوزَ حُكُومَةُ النَّشْوَانِ
فَدَعُوا الْحُكُومَةَ لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا إِنَّ الْحُكُومَةَ فِي بَنِي شَيْبَانَ

ورد الفرزدق بنقيضته :

يَا بَنَ الْمِرَاغَةِ ، وَالْهَجَاءُ إِذَا التَّقَتْ أَعْنَاقُهُ وَتَمَاحَكَ الْخَصْمَانِ

وكان الأخطل قد أسنّ ، فلم يصمد لجرير . ولكنه تبي يعين الفرزدق عليه وهو نادى على دخوله بينهما : ولما سمع قول جرير :

جَارَيْتَ مُطْلِعَ الْجِرَاءِ بِنَايِهِ رَوْقُ شَيْبَتُهُ وَعَمْرُكَ فَاِنْ

قال : صدق إنه لشاب . ولقد وليت . . . ولم يلبث أن هلك . فقال جرير :

زَارَ الْقُبُورَ أَبُو مَالِكٍ فَأَصْبَحَ أَهْوَنَ زَوَارِهَا

فأجابه الفرزدق بقوله :

زَارَ الْقُبُورَ أَبُو مَالِكٍ رَغِمَ الْعُدَاةُ وَأَوْتَارِهَا^(١)

وتعرض الراعي النخيري القيسي شاعر مضر لجرير بقوله :

يَا صَاحِبِي دَنَا الْأَصِيلُ فَسِيرَا غَلَبَ الْفَرَزْدَقُ فِي الْهَجَاءِ جَرِيرَا

فلامه جرير لأنه قيسي ، وجرير يذود عن قيس ، فأصاخ له بدء ذى بدء ثم عنفه ابنه جندل وصب جريراً ، فأقسم جرير ، ليرجعنه إلى بني نمر بأعباء ثقال ، وسهر ليلته مع راويته وسراجه ، حتى أصبح عليهم في المربد وهو ينشد لهم الدَّمَاعَةَ :

أَقْلَى اللِّوَمَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا وَقَوْلِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

فهجا فيها الراعي وابنه وقومه والفرزدق ورهطه ، وافتخر بقومه ، وطمعت بها الألسنة ، وذهب الراعي بوزرها ، ولم تقم له قيامة بعدها .

وهكذا كان الشعراء يدخلون بين فحلى* تميم ، وكان جرير يسكتهم أفراداً وجماعات حتى غلب ما يقرب من ثمانين شاعراً منهم : العباس الكندي ، وسُرّاقة البارق ، وعمر بن لجأ التيمي ، والبلّثع المستنير بن سبيرة العنبري ، وجفينة الهزّاء العنزي ، والحمّاني ، والصّلّتان العبدي ، وغير هؤلاء كثير ممن أسهّطهم جرير ، ولم يصمد له غير الفرزدق يؤازره الأخطل .

(ب) أهاجيه :

لم يبدأ بالهجاء أحداً ، بل كان ينتقم من ظلم قومه ، أو تعرض له ، أو أعان عليه .

قال له الحجاج : إيه يا عدو الله ، علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقال : جعلني الله فداء الأمير ، والله إني ما أظلمهم ، ولكنهم يظلموني ، فأنتصر^(١) .
وسئل : علام تقذف المحصنات ؟ قال : إنهم يبدءوني ثم لا أعفو^(٢) .

وقد ذكرنا فيما سبق أسباب غلبته في الهجاء ، وأخبار التحامه بالشعراء ، وأنه أسقطهم جميعاً ، ولم يصمد له غير الفرزدق يؤازره الأخطل ، ومما أعاناه عليهما : فسق الأول ونصرانية الثاني وإدمان شربه الخمر ، مع تدين جرير وعفته .

واتخذ مع معارضيه المربد سوقاً لأهجياتهم ، يشدونّها بين عاصف من التصايح والتهريج والصفير ، ويحاول كل منهم أن يجد إلى القلوب سبيلاً ، فكان أقربهم إليها وصولاً ، وأعنفهم خصومة ، وأقذعهم هجاء ، وأقدرهم على امتلاك ناصية القول ، وأبرعهم اقتناصاً للمعنى وتوليده ، وأعذبهم أسلوباً ، وأكثرهم تهكماً واستهزاء ، يرى خصمه بما يضحك السامعين ، ويعجب من مكابرتة له ، وتبذله بين الناس ، ويحط من شأن قبيلته ، ويلبسه ثوب السخرية والصغار ،

(١) « الأغاني وهذبه » .

(٢) نفس المرجع وه العبد » .

ويهتك الحرمات والأعراض ، وكثيراً ما اختلق الأكاذيب في سبيل قهر منازله ، فكان الناس يخشون شيرة لسانه .

ومن هجائه الذى يتسم بعفة المذهب قوله :

لو أن تغلبَ جمعتُ أحسابها يوم التَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالاً

وقوله :

فغض الطرفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْباً بَلَغْتَ وَلَا كِلَاباً

غير أن البيت الثانى أشد هجاء ، لما فيه من التفضيل ، فقد قالوا : أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل^(١) . وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، وترك الفحش فيه أصوب ، إلا جريراً فإنه قال لبيه : إذا مدحتم فلا تطيلوا المداحة ، وإذا هجوتهم فخالفوا . ويقول : إذا هجوت فأضحك^(٢) . وتأثر به ابن الروى فسار على منواله فى أهجياته . ومن الاحتقار قول جرير^(٣) :

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ نَيْمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودٌ

(ج) النقائض :

ولقد التحام جرير بالشعراء فنأًجديداً ، يقوم على الحوار والمناظرة والتحدى وقد اتخذته الجماهير مادة للتسلية والفكاهة ، ذلك هو فن النقائض : وفيه ينظم الشاعر قصيدة ، ثم ييادر مقارعه فينقض هذه القصيدة بأخرى تجرى مع الأولى فى وزنها وقافيتها ، ويحاول أن يظهر براعته وتفوقه فى الصياغة الفنية ، والنبات الموسيقية ، ومعانى الهجاء أو الفخر .

وتعد النقائض من الوثائق التاريخية الجامعة للحوادث والأيام ، والأحساب

والأنساب . والمناقب والمثالب . وأخبار العرب في جاهليتها وإسلامها .
وأشهرها نقائض جرير مع الفرزدق والأخطل .

١ - نقائض جرير والفرزدق :

ناقض جرير الفرزدق في كثير من قصائده . فنسبه إلى القين ، وغمره بأن
فُتِّبَرَةَ جدتهم بنت زنا . ورماه بنفور زوجه منه . وغدر قومه بالزبير . وقتل
أعين الجاشعي أبي زوجه النوار ، كما شنع بجعثن أخت الفرزدق . وعيره بخيته
في الضرب بالسيف الذي أعطاه إياه سليمان بن عبد الملك ليقتل به أسيراً روميّاً ،
فبنا في يده . وألقاه بين ضحك سليمان . ونخر به القوم . ولا ينسى جرير مفاخر
قومه ومخازي مجاشع ومن هذه النقائض قصيدة الفرزدق :

تَحِنَّ بِزُرَّاءِ الْمَدِينَةِ نَاقِي حَنِينَ عَجُولٍ تَبْتَغِي الْبُورَائِمَ^(١)

ومنها :

أَدْرَسَانَ قَيْسٍ لَا أَبَا لَكَ تَشْتَرِي بِأَعْرَاضِ قَوْمٍ هُمْ بُنَاةُ الْمَكَارِمِ^(٢)

نقضها جرير بقصيدته :

أَلَا حَيَّ رَسَمَ الْمَنْزِلِ الْمُتَقَادِمِ وَمَا حَلَّ مُذْ حَلَّتْ بِهِ أُمُّ سَالِمِ

ومنها :

وَإِنِّي وَقَيْسًا يَا بَنَ قَيْنٍ مُجَاشِعٍ كَرِيمٍ أَصْفَى مِدْحَتِي لِلْكَارِمِ

(١) العجول : الشكل وهي المرأة تشكل أولادها ، شبه حنين الناقة بحنين الشكل وملبها لولدها
البو : جلد حوار يحشى ثمماً لترأه الناقة ، وتعبه ولدها ، فينزل لبنها .

(٢) درسان : خلقان الواحد دريس .

٢ - نقائض جرير والأخطل :

وفيها ينصر جرير قومه والقيسين : مشيداً بمفاخر أيامهم : وما أثر أحسابهم
وأنسابهم ، ويرى التغلبيين بكل أبدة وفحش مقدع . ويهجم على الأخطل ،
فيدمغه بالنصرانية والحزبية ، واحتساء الصهباء . والتقدارة والغباء ، والبعد عن قبيلة
الخليفة والسلطان ، ومن هذه النقائض قصيدة الأخطل :

حَيُّ الظَعَانِ إِذْ رَحَلْنَ بُكُورًا بِرُؤْيُتَيْنِ فَقَدْ رَفَعْنَ خَدْرًا
ومنها :

أَزَعَمْتَ أَنْ بَنَى كَلِيبٌ سَادَةً قَبْحًا لِّذَلِكَ مَعْشَرًا مَذْكُورًا
نقضها جرير بقصيدته :

رَحَلَ الْخَلِيطُ فَزَايَلُوكَ بُكُورًا وَحَسِبْتَ بَيْنَهُمْ عَلَيْكَ يَسِيرًا
ومنها :

اللَّهُ فَضَّلَنَا وَأَخْزَى تَغْلِيًّا لَنْ تَسْتَطِيعَ لِمَا قَضَى تَغْيِيرًا

٣ - جرير والفرزدق والأخطل :

وقد اتفقت العرب على أن أشعر أهل الإسلام ثلاثة : جرير والفرزدق
والأخطل . واختلفوا في تقديم بعضهم على بعض^(١) . ثم قضت كثرتهم للفرزدق
في الفخر . وللأخطل في المديح ونعت الحمر . وخصوا جريراً بالفصل في الهجاء
والغزل والرثاء .

أما تقدم الفرزدق في الفخر . فلتقدمه على صاحبيه في شرف العشيرة .
وفخامة العبارة .

(١) « الوسيط » و « الأغاني » و « النقائض » و « العدة » .

وأما سبق الأخطل في نعت الحر ، فلأنهما لم يجرىا معه في ميدانها ، لإسلامهما ونصرانيته ، فانفرد بها دونهما ، وأعانه على سبق في المديح عنانيته بالصياغة ، وتعمقه بالصنعة ، وحرصه على إرضاء الخلفاء حماية للنصرانيين من تغلب ، ورداً الكيد خصومه ، غير أن اعتداده بالمعاني الجاهلية . وتخلقه عن الإفادة من العناصر الإسلامية ، جعل جريراً يسبقه أحياناً في هذا المضمار .

وجاء تبريز جرير في الهجاء بسبب عنفه في خصومته ، وخصريته من غريمه ، وقسوته في انتهاك الحرمات ، وما تميز في الغزل والرثاء إلا لتميزه بالعفة والتدين ، وبسباحة النفس ، وسلامة الطبع ، وعذوبة المنطق ، وصدق الشعور .

ومن الشواهد على ذلك ما روى من أن الفرزدق دخل على سكينه بنت الحسين ، فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت أشعر منك الذي يقول :

بِنَفْسِي مَنْ تَجَنَّبُهُ عَزِيزٌ عَلَىَّ وَمَنْ زِيَارَتُهُ لِيَمَامُ
وَمَنْ أَمْسَى وَأَضْبَحَ لَا أَرَاهُ وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَعَ النَّيَامُ

ثم دخل عليها في اليوم الثاني ، فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت أشعر منك الذي يقول :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَاجَنِي اسْتِعْبَارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكَ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ
وفي اليوم الثالث أعادت السؤال ، وأعاد الجواب ، فقالت : أشعر منك الذي يقول :

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلَنَّا ثُمَّ لَمْ يَخِينَنَّ قَتْلَانَا

والأبيات لجرير في الغزل والرثاء ، ولما سئل بشار بن برد : أى الثلاثة أشعر ؟ قال : لم يكن الأخطل مثلهما ، وكانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، وأبدى إعجابه بأبيات لجرير يرثي ابنه سودة .

وقال مروان بن أبي حفصة :

ذَهَبَ الْفَرْزَدُقُ بِالْفَخَّارِ وَإِنَّمَا حُلُوُ الْقَرِيضِ وَهُرَّةُ لِيَجَرِيرِ
ومن قدم جريراً احتج بأنه كان أكثرهم فنون شعر : وأسهلهم ألفاظاً .
وأقلهم تكلفاً وأرقهم نسيباً ، وأهتكمهم لعدوه سترأ ، وأغزهم بحراً . إن طَلَبَ
لم يُسَبِّحْ ، وإن طُلِبَ لم يُنَحِّمْ^(١) .

٤ - سيرورة شعره

تأثرت نفس جرير الصافية بالحياة الجديدة : فصوّرها للناس كما أحبّوها ،
وابتدع لهم في شعره من فن القول ، وجدديد المعاني ، وضروب الخيال ، ومهولة
الأساليب . وعدوبة الموسيقى : ما أعجبهم وأطربهم . فتعلقوا به ، وأقبلوا عليه
يحفظونه ، وينشدونه في كل مكان ، حتى اتهمت الجنّ بإذاعتها : فكان بذلك
أكثر أهل زمانه سيرورة شعر ، وقرباً إلى النفوس .

قال الأخطل للفرزدق : أنا والله أشعر من جرير : غير أنه رزق من
سيرورة الشعر ما لم أرزقه ، وقد قلت بيتاً لا أحسب أن أحداً قال أهجى منه وهو :

قَوْمٌ إِذَا اسْتَنْبَحَ الْأَضْيَافُ كَلْبَهُمْ قَالُوا لِأُمِّهِمْ بُوَيَّ عَلَى النَّارِ
فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر . وقال هو :

والتَّغْلِييُّ إِذَا تَنَحَّحَ لِلْقُرَى حَكَ اسْتُهُ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا

فلم يبق سقاء ولا أمة حتى روته . قال الأصمعي : فحكما له بسيرورة
الشعر^(١) . وكان جرير يعتزّ بذلك . قال وهو يهاجي البعث :

فَإِنِّي لَهَا جِيبُهُمْ بِكُلِّ غَرِيبَةٍ مُرَوِّدٍ إِذَا السَّارَى بَلِيلٍ تَرَنَّمَا
غَرَائِبَ أَلْفَا إِذَا حَانَ وَرُدُّهَا أَخَذَنَ طَرِيقًا لِلْقَصَائِدِ مُعَلَّمَا

٥ - منزلته بين الشعراء

مما تقدم نعى سر إعجاب الرواة والنقاد في سائر العصور بشعره ، وتقديمهم لبعض أبياته القريبة المعنى على أبيات فحول الشعراء .

سئل أعرابي راوية : أى الشعراء عندكم أشعر ؟ قال : بيوت الشعر أربعة : فخر ومديح وهجاء ونسيب ، وفي كلها غلب جرير ^(١) .

وقال جرير لرجل من بني طهية : أينما أشعر أنا أم الفرزدق ؟ فقال له : أنت عند العامة ، وهو عند العلماء ، فصاح به جرير : أنا أبو حزة غلبته ، ورب الكعبة ما في كل مائة رجل عالم واحد .

ونزل الفرزدق على الأحوص حين قدم المدينة ، فقال الأحوص : ما تشبى ؟ قال : شواء وطلاء وغناء ، قال : ذلك لك ، ومضى به إلى قينة . فغنته :

أَلَا حَيَّ الدِّيارَ بِسَعْدَ إِنِّي أُحِبُّ لِحُبِّ فَاطِمَةَ الدِّيارِ
أَرَادَ الظَّاعِنُونَ لِيُحْزِنُونِي فَهَاجُوا صَدَعَ قَلْبِي فَاسْتَطَارَا

فقال الفرزدق : ما أرق أشعاركم يا أهل الحجاز وأملحها ! فقال الأحوص : أو ما تدري لمن هذا الشعر ؟ قال : لا والله ، قال : فهو والله لجرير يهجوكم به . فقال : ويل ابن المراغة ، ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعري ، وأحوجني مع شهواني إلى رقة شعره .

وقال الرجل للفرزدق : يا أبا فراس ؛ هل تعلم اليوم أحداً يرى معك ؟ فقال : لا والله ، ما أعرف نابحاً إلا وقد استكان . ولا ناهشاً إلا وقد انجحر ، إلا الذى يقول وذكر أبياتاً لجرير منها :

لِسَانِي وَسَيْفِي صَارِمَانِ كِلَاهُمَا وَلِلسَّيْفِ أَشْوَى وَقَعَةٍ مِنْ لِمَانِيَا

وسأل رجل جريراً : من أشعر الناس ؟ فقال له : قم حتى أعرفك الجواب .
 فأخذ بيده . وجاء به إلى أبيه عطية . وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها . وجعل يمص
 ضرعها . فصاح به : اخرج يا أبت . فخرج شيخ دميم رث الهيئة . وقد سال
 لبن العنز على لحيته . فقال ألا ترى هذا ؟ قال : نعم . قال : أو تعرفه ؟ قال :
 لا . قال : هذا أبي . أفندرى لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قال : لا .
 فقال جرير : مخافة أن يُسمع صوت الحلب . فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر
 الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً . وقارعهم به . فغلبهم جميعاً .

٦ - تآثره وتأثيره

خضعت حياة جرير لمؤثرات تأثر بها شعره : فبدأ أكثر قصائده بالنسيب
 في صياغة عربية بدوية جاهلية . ومدح بالشجاعة والكرم . وفخر بالأيام
 والأحساب والأنساب . مقتنياً أثر الجاهليين . وبيته :

أَغْرَكَ مِنِّي أُنْمًا قَادَنِي الْهُوَى إِلَيْكَ وَمَا عَهْدُ لَكُنَّ بِدَائِمٍ

من قول امرئ القيس :

أَغْرَكَ مِنِّي أَنْ حُبَّكَ قَاتَلِي وَأَنْتَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِي

والحياة الإسلامية أثر في تدينه وعفته . وصفاء نفسه . ورقة طبعه . وسهولة
 أسلوبه . وعدوبة غزله . وروعة مراثيه .

واستعان بالقرآن والحديث . والعناصر الدينية . والآراء المذهبية . والانجاهات
 السياسية والاجتماعية . فشاعت له ألفاظ ومعان لم تكن شائعة . كالله والنبوة
 والملائكة . والصلاة والصوم والحج . والأبرار والكفار . والإسلام والنصرانية .
 والخلافة والإمامة وغيرها كقوله :

إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِبًا جَعَلَ الْخِلَافَةَ وَالنُّبُوَّةَ فِينَا

ومن اقتباسه القرآني بيته في عبد العزيز بن الوليد :
فَلَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيهِه وَلَا عَرَضُ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلُهُ

من قوله تعالى :

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا)

وهجا الأخطل بنصرانيته :

فَحَرْتُ بِقَيْسٍ وَافْتَحَرْتُ بِتَغْلِبٍ فَسَوْفَ تَرَى أَى الْفَرِيقَيْنِ أَرْبَحُ ؟
فَأَمَّا النَّصَارَى الْعَابِدُونَ صَلَيبِهِمْ فَخَابُوا ، وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَأَقْلَحُوا

ورمى الفرزدق بفسقه :

تَتَّبِعُ فِي الْمَاخُورِ كُلِّ مُرَبِّيةٍ وَلَكَسْتَ بِأَهْلِ الْمُخَصَّنَاتِ الْكَرَائِمِ

ومدح الأمويين ولولانهم وأيد سياستهم تأييداً دينياً ، متأثراً بالنظريات العقلية
والمذهبية التي شاعت في عصره ، والتي كانت سبباً في نضوج فن النقااض
والمناظرة والجدل ، وتوليد المعاني ، كما بينا آنفاً .

وهل شاعرية أسرته ، وبدوية بيته ، وضعة رهطه ، ورقة حاله ، وتتابع
الأحداث ، وتنافس الشعراء بالمربد ، وتقابلهم في مجالس الخلفاء ، وإجزال
العطاء ، وشيوع النقد والثقافة ، إلا مؤثرات أقامت شعره ، وهيات له نفسه ،
فأحكم المدح والهجاء ، وأسلس الغزل والرثاء .

وكثيراً ما تأثر بنقااض الفرزدق والأخطل ، وهو يجيبهما ، محاولاً أن يبيدهما
ويُفْخِجَهما بنقض ما أتيا به .

ولا نغفيه من التأثر بالنقااض والأحاجي ، التي عجت بها المعركة
الشعرية ، إبان ظهور الدعوة الإسلامية ، بين شعراء الرسول وشعراء الوثنية .
وله تأثير مباشر في شاعرية أبنائه وأحفاده ، وسائر شعراء عصره ، لسيرورة

شعره ، ولأنه المقدم فيهم مع زميليه الفرزدق والأخطل اللذين ظهر أثره واضحاً في نقائضهما وهما يردان عليه .

واقفني أثره في مدائحه كثير ممن أتى بعده من الشعراء ، كبشار ، وأبي نواس ، والبحرئى ، وأبي تمام . وكان بشار يعجب بشعره ، ويحاول الالتحام به ، ولكنه لم يفلح ، فقد هجاه ولم يجه ، قال بشار : لم أهجه لأغلبه ، ولكن ليجيبني ، فأكون من طبقته ، ولو هجاني لكنت أشعر الناس ^(١) .

واغترف البحرئى من عذوبة أسلوبه ، وسار على منهاج نسيبه ، كما سلك طريقته في الهجاء سواء على بن العباس بن الرومى ، فإنه كان يطيل ويفحش ^(٢) وله مرافدة مع بعض الشعراء يعينهم بأبيات يهبها لهم ، قال لذي الرمة :
أنشدني ما قلت لهشام المري ، فأنشده قصيدته :

نَبَتْ عَيْنَاكَ عَنْ طَلَلٍ بِحَزْوَى مَحْتَهُ الرِّيحُ وَامْتَنَحَ الْقَطَارَا

قال : ألا أعينك ، قال : بلى بأبي وأمي . قال : قل له :

يُعَدُّ النَّاسِبُونَ إِلَى تَحِيْمٍ بُيُوتَ الْمَجْدِ أَرْبَعَةٌ كِبَارَا
يَعْدُونَ الرَّبَابَ وَالْ سَعْدَ وَعَمْرًا ثُمَّ حَنْظَلَةَ الْخِيَارَا
وَيَهْلِكُ بَيْنَهَا الْمُرَى لَغَوَاً كَمَا أَلْعَيْتَ فِي الدِّيَةِ الْحَوَارَا

فلقيه الفرزدق فاستنشده ، فلما بلغ هذه قال : جيد أعيدته ، فأعاد ، فقال : كلا والله لقد علككهن من هو أشد لحيش منك ، هذا شعر ابن المراغة ^(٣) .
واسترفد هشام المري جريراً على ذى الرمة ، فقال في أبيات :

يُمَاشِي عَدِيًّا لَوْمَهَا مَا تُجْنُهُ مِنَ النَّاسِ مَا مَاشَتْ عَدِيًّا ظِلَالُهَا
فَقُلْ لِعَدِيٍّ تَسْتَعِنُ بِنِسَائِهَا عَلَى فَقْدِ أَعْيَا عَدِيًّا رِجَالُهَا
أَذَا الرَّمُّ قَدْ قَلَّدَتْ قَوْمَكَ رُمَةً بَطِيئاً بِأَيْدِي الْعَاقِدِينَ انْحِلَالُهَا

فقال ذو الرمة لما سمعها : يا ويلنا ، هذا والله شعر حنظلي . وغلب هشام على ذى الرمة . بعد أن كان ذو الرمة مستعلياً عليه ^(١) .

والتقط يزيد بن الطثيرة وسط بيته :

إِذَا مَا رَأَىٰ مُقْبِلًا غَضَّ طَرْفَهُ كَانَ شُعَاعَ الشَّمْسِ دُونِي يُقَابِلُهُ

من قول جرير :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابًا

في قصيدته التي ذاع خبرها . وشاع أثرها . شأن الكثير من شعر جرير ، وهي التي أخزى بها بني نمير . وكانوا جمة من جمرات العرب . إذا سئل أحدهم : ممن الرجل ؟ فحشم لفظه . ومدّ صوته . وقال : من بني نمير . إلى أن هجاهم جرير بهذه القصيدة فلم يرفعوا رأساً بعدها إلا نكس . حتى إن مولى لباهلة كان يرد سوق البصرة متاراً ^(٢) فيعبث به بنو نمير ، فقص الخبر على مواليه . وقد ضجر من ذلك . فقالوا له : إذا نبزوك فقل لهم :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابًا

ومرّ بهم بعد ذلك فبذروه . وأراد البيت فتنسيه ، فقال : غمض والا جاءك ما تكره . فكفوا عنه . ولم يعرضوا له بعدها .

ومرّت امرأة ببعض مجالسهم فأداموا النظر إليها ، فقالت : قبحكم الله يا بني نمير . ما قبلتم قول الله عزّ وجلّ : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) ولا قول الشاعر : فغضّ الطرف . . . البيت ^(٣) .

والقصيدة التي منها هذا البيت تسميها العرب الفاضحة . ويسميها جرير

(١) « العدة » لابن رشيقي .

(٢) استار : جمع الطعام والمؤنة .

(٣) « العدة » لابن رشيقي .

الدماغ ، أو الدهقانة ، ويسمى قافيتها المنصورة . لنصره بكل قصيدة على قافيتها .

وهذا رجل ظريف من تغلب يقول : ما لى أحد ما لقيت أنا ! قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : قال جرير أبياته التى منها :

والتغلبى إِذَا تَنَحَّنَحَ لِلْقِرَى حَكَ اسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا

والله : إني لأتوهم أن لو نهشت استى الأفاعى ما حككتها ^(١) .

ومرّ بالفرزدق رجل فيه لين ، فقال له : من أين أقبلت عَمَتْنَا ؟ قال : نفاها الأغرُّ ابنُ عبد العزيز . فكانَ الفرزدق صُبَّ عليه الماء : لأنه عَرَضَ له بقول جرير فيه حين نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة :

نَفَاكَ الْأَغْرُ ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَحَقَّكَ تَنْفَى مِنَ الْمَسْجِدِ

وله أبيات كثيرة لها صلة بمن تقدم عليه ، وأثر فيمن تأخر عنه أو عاصره مثل قوله :

بُكِّلْفَنِي رَدَّ الْعَوَاقِبِ بَعْدَ مَا سَبَقَنَ كَسْبَقِ السَّيْفِ مَا قَالَ عَادِلُهُ

أخذه الكميت بن معروف فقال :

وَلَا تُكْثِرُوا فِيهِ الضُّجَّاجَ فَإِنَّهُ مَحَا السَّيْفُ مَا قَالَ ابْنُ دَارَةَ أَجْمَعَا

والمثل السائر من قبل هذا : « سبقَ السيفُ العذل ^(٢) » .

وقال جرير :

قَوْمٌ إِذَا حَصَرَ الْمُلُوكَ وَفُودَهُمْ نُتِفَتِ شَوَارِبُهُمْ عَلَى الْأَبْوَابِ

فقال الآخر :

فَلَمَّا وَرَدْتُ الْبَابَ أَتَيْتُ أَنْنَا عَلَى اللَّهِ وَالسُّلْطَانُ غَيْرُ كِرَامٍ^(١)

* * *

وقال سويد بن أبي كاهل الشكري :

وَلِسَانًا صَيْرَفِيًّا صَارِمًا كَحُسامِ السَّيْفِ مَا مَسَّ قَطَعُ

وقال حسان بن ثابت :

لِسَانِي وَسِنِي صَارِمَانِ كِلَاهِمَا وَيَبْلُغُ مَا لَا يَبْلُغُ السَّيْفُ مِذْوَدِي^(٢)

فقال جرير :

وَلَيْسَ لِسِنِي فِي الْعِظَامِ بَقِيَّةٌ وَلَا السَّيْفُ أَشْوَى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيَا

وقال الآخر :

وَجَرَحُ السَّيْفِ تَدْمُلُهُ فَيَبْرَى وَيَبْقَى الدَّهْرُ مَا جَرَحَ اللُّسَانُ^(٣)

ومنه قول الآخر :

جِرَاحَاتُ السَّنَانِ لَهَا التَّيَامُ وَلَا يَلْتَأَمُ مَا جَرَحَ اللُّسَانُ

* * *

وديان جرير وثيقة تاريخية لأيام العرب وأحسابها وأنسابها ، وصورة صادقة لحياة الأمويين الاجتماعية والسياسية والأدبية ، غير أنه لم يسلم من وصمة الهجاء المفعش الخبيث ، وسبة الواقعية المكشوفة .

وطالما استشهد النحاة بأوايده ، واغترف الأدباء من بحور قصائده ، وسبق أبدا الدهر منهلاً عذباً لوراد العربية ، وعشاق البيان .

* * *

(١ ، ٢) « البيان والتبيين » .

(٣) المذود : اللسان .